الصراع البرتغالي في اليمن

١٥١٧ - ١٥٣٨

د. صالح رمضان محمود *

تمهيد :

كان العرب بمثابة همزة الوصل بين أوربا من جهة ، وآسيا وافريقيا من جهة أخرى ، حيث كان نشاطهم التجاري المتزايد يفوق نشاط الجاليات الأجنبية التي حاولت منافستهم في هذا المجال . وكانوا يقومون بنقل البضائع الشرقية من سفنهم الى الخليج العربي والبحر الاحمر ثم تنقل براً حتى البحر المتوسط ثم تصل الى أسواق أوربا بعد ذلك . (١)

وكان للشعب اليمني دور كبير في هذا الرواج الاقتصادي والذي يحدثنا عنه الجغرافي والرحالة العربي (المقدسي) في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) بقوله :

« واليمن معدن العصائب والعقيق ، والأدم والرقيق ، فالى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والساج والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والابنوس والنارجيل والقنـد والاسكندروس والصبر والحديد والرصاص والخيزران والغضار والصندول والبلور والفلفل وغير ذلك . وتزيد عدن بالعنبر والشروب والدروق والحبش والخدم وجلود النمور » . (٢)

وكانت عدن مركزا لتجارة الهند والشرق الاقصى وتجارة الخليج العربي ، وشرق افريقيا ، وأصبحت قاعدة هامة للتجارة العربية . وقد تحدث عنهـا الرحالة البرتغالي (كوفلهام) الذي زارها في عام ١٤٨٧م فقال : « ان عـدن كانت من اكثر بلدان العالم تجارة ، وبأن بها اكثر التجار ثراء ، اذ كانت تفـد

* أستاذ بقسم التاريخ ــ كلية التربية ــ جامعة عدن .

اليها السفن العديدة المختلفة الانواع والاحجام من جميع البقاع ، فكانت هذه السفن تفد اليها من جدة محملة بالبضائع الاوربية والمصرية والسورية ، كما كانت السفن تفد اليها من موانى ساحل افريقيا الشرقى مثل زيلع وبربرة وسوفالا وكيلوه وموزمبيق وممبسا محملة بالمواد الغذائية أو بالوفير من سبائك الذهب والفضة ، ومن موانى ساحل الهند الغربى مثل توبو وقاليقوت أو موانى جزر الهند الشرقية حتى ملقا وانه كان من الصعب معرفة انواع البضائع أو تقدير أثمانها » . (٣)

كما أدهش الصينيون بفن البحارة العدنيين عند زيارتهم لها عام ٤١٨م وقالوا عنها : « وفي عدن فلكيون محنكون ، وهم يعينون الأيام التى يبدأ فيها تفتح الزهور وأيام ذبولها وأيام خسوف القمر وكسوف الشمس ، ويحدسون متى تهب الريح ومتى ينزل المطر ويعرفون مدى ارتفاع المد والجزر ، وما من شيء من هذا القبيل لم يستطيعوا اكتشاف كنهه » . (٤)

لذا تعرض اليمن خلال النصف الاول من القرن السادس عشر للغزو البرتغالى ثم الغزو العثمانى ، وقام الشعب اليمنى بدور بطولى في صد الغزاة أيا كان نوعهم . وقد اعترف الاتراك العثمانيون بشدة المقاومة اليمنية بقولهم :

« ما راينا مسبكا مثل اليمن لعسكرنا ، كلما جهزنا اليه عسكرا ذاب ذوبان الملح ، ولا يعود منه الا الفرد النادر ، ولقد راجعنا الدفاتر في ديوان مصر من زمن ابراهيم باشا الى الآن ، فراينا قد جهز من مصر الى اليمن ، في هذه المدة ثمانين الفا من العسكر ، لم يبق منهم في اليمن ما يكمل سبعة الاف نفر » . (٥)

أما عن الصراع البرتغالى العثمانى فانه بالرغم من المحاولات المتكررة للعثمانيين للقضاء على البرتغاليين الا أن كل هذه المحاولات لم تستطع صد البرتغاليين عن مشاريعهم الاستعمارية في الشرق العربى ، ولكن كان من شأنها ، على أى حال ، أن ترفع المعنوية العربية لا سيما وقد تبين أن تفوق الملاحة العسكرية البرتغالية لم يكن من الهين القضاء عليه . ان كل ما استطاعت الدولة العثمانية أن تفعله هو انها احتلت عددا من المدن في اليمن والبحر الاحمر لكنها لم تستطع ان تحصل على انتصار حاسم على البرتغاليين برغم الحملات المتكررة ، والاساطيل الكبيرة التى اتى بها العثمانيون في البداية.

وكان الرأي السائد عند عدد من المؤرخين الاوروبيين والعرب الذين اخذوا عنهم هو أن البرتغاليين استطاعوا أن يقضوا قضاء مبرما على التجارة

العربية في المحيط الهندى والواقع أن الابحاث الحديثة تفند هذا تفنيداً باتا . ويقول الدكتور احمد عزت عبد الكريم :

« اذا كان الجانب الاكبر من التجارة الشرقية قد تحول الى الطريق البحرى المباشر ، فان أسواق العواصم والثغور العربية في بغداد والبصرة ودمشق وحلب والاسكندرية ظلت عامره بمنتجات الشرق مما تجلبه القوافل ويتردد عليها التجار من جنسيات مختلفة ليتزودوا منها بما يريدون » . (٦)

الغزو البرتغالى :

كانت البرتغال أول دولة فكرت في القيام بحركة الكشوفات الجغرافية في النصف الأول من القرن الخامس عشر . وفي عام ١٤٩٧ بدأ فاسكودى جاما في الدوران حول رأس الرجاء الصالح الى الساحل الشرقى لافريقيا حتى بلغ ماليندى في مملكة (كامبيا) — كينيا حاليا — وفيها علم من الملاحين العرب أن الهند تبعد نحو ٦٠٠ فرسخ ، وكان من الممكن أن تنتهى رحلة داجاما عند هذا الحد لولا صداقته مع ملك ماليندى ، التى كان من نتائجها أن بعث اليه الملك بربان عربى خبير بالمحيط والملاحة فيه هو (شهاب الدين احمد بن ماجد) الذى تولى ارشاد داجاما في مياه المحيط حتى وصل ساحل الهند . (٧)

وكان ابن ماجد واحدا من أمهر رجال الأسفار البحرية ووضع عددا من المؤلفات والقياسات البحرية الهامة منها كتابه الشهير : الفوائد في أصول علم البحر والقواعد . وكذلك : حاوية الاختصار في أصول علم البحار . وتنحصر أهمية مخطوطات ابن ماجد في كونها أقدم الوثائق العربية التى دونت عن الملاحة وفنون البحار في المحيط الهندى والخليج العربى . ومن الطريف أن الحكومة البرتغالية اعترفت بفضل ذلك الملاح العربى فأقامت له نصبا تذكاريا في مدينة ماليندى . (٨)

واستطاع البرتغاليون بتوجيه وارشاد ابن ماجد أن يعبروا المحيط الهندى من ميناء ماليندى ويصلوا في اليوم الثامن عشر من شهر مايو عام ١٤٩٨ الى ثغر كاليكوت على الساحل الغربى للهند المسمى ساحل مالابار ، وكانت كاليكوت حقا قلب التجارة البحرية والآسيوية كلها . فهناك كانت تجري مقايضة بضائع الشرق الأقصى وجنوب شرقي آسيا ببضائع أفريقيا وأوربا والشرقين الأدنى والأوسط . وهناك كان المركز الرئيسى لتجارة التوابل . (٩)

وبوصول البرتغاليين الى الهند بحرا حققوا هدفا من أهداف اسهامهم في حركة الكشوف الجغرافية ، وهو كشف طريق بحرى مباشر متصل بوسط أوربا

الغربية والهند وغيرها من الاقاليم الواقعة فيما وراء البحـــار واحتكار التجارة الشرقية .

وقد استعان البرتغاليون بجواسيس من اليهود قبـــل ارسال حملتهم بقيادة فاسكودى جاما . وقد شكل أولئك الجواسيس بعثتين جاءتا على فترتين متعاقبتين الى المنطقة العربية ، وقد نجح اليهود في عمليات التجسس ، وكان من أسباب نجاحهم معرفتهم اللغة العربية ، وتظاهرهم بأنهم مسلمون وتخفيهم في زى تجار ، جاءوا سرا الى مصر ، ثم أقلعوا من السويس على سفينة عربية الى عدن ، ثم استقلوا سفينة أخرى الى هرمز وسافروا منها الى الهند.واستطاع الجواسيس اليهود أن يحصلوا على خارطات عربية عن المحيط الهندى ومعلومات تفصيلية عن التيارات البحرية والرياح الموسمية في هذا المحيط ، فضلا عـــن البيانات الخاصة بالتجارة الشرقية من حيث حجمها ونوعياتها وما الى ذلـــك من معلومات ، ثم عادوا الى البرتغال عن طريق مصر ، وقد استفاد البرتغاليون من عمليات التجسس استفادة كبيرة . (١٠)

وقد عمل البرتغاليون على تطوير سياستهم الاستعمارية في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر من كشف الطريق البحرى الـــى الهند الى الرغبة في احتكار التجارة الشرقية والسيطرة على مصادرها الاصلية واقامة حكومة استعمارية أوربية في بلاد الشرق . كما فكروا في اغلاق المنفذين الرئيسيين للبحار العربية المتصلة بمياه المحيط الهندى في وجه التجار والملاحين العرب والمسلمين وهما هرمز في مدخل الخليج العربى وعدن في مدخل البحـــر الاحمر ، وفكروا في اتخاذها قاعدة عسكرية للدخول الى البحر الاحمر ، وكانت تمر في هذا البحر التجارة العالمية الى السويس فالقاهرة والاسكندرية حيث تنقل الى أوربا .

ولا شك أن تفوق البرتغاليين الحربي كان عاملا أساسيا في تطور موقفهم السريع أثناء تلك الفترة بحيث كانوا يمتلكون سفنا حربية مزودة بالمدافع وهى أسلحة لم تكن معروفة في الهند في ذلك الحين . (١١)

وقد أدى تحول التجارة العالمية الى الطريق البحرى المباشر حول رأس الرجاء الصالح الى حرمان الشعب اليمنى وسائر الشعوب العربية المطلـــة على البحر الاحمر من مصدر هـــام من مصادر ثروتهم مما أدى الـــى انهيـــار اقتصادياتهم ونظمهم السياسية التى كانت قائمة في ذلك الحين .

وقد وقف الطاهريون ـــ يساندهم الشعب اليمنى ـــ في وجـــه الغزو البرتغالى الاستعمارى ـــ بقيادة عامر بن عبد الوهاب . ممـــا يؤكـــد الموقف

الايجابى للشعب اليمنى في مواجهته وتصديه للخطر البرتغالى . فعلى الرغم من الاضطرابات السياسية والاقتصادية نتيجة لضعف الايرادات بسبب الحصار البرتغالى وتحويل طريق رأس الرجاء الصالح ، فقد أمر عامر بن عبد الوهاب بتجهيز حمله بحرية في عام ١٥٠٧ لمحاربة البرتغاليين في الهند ، غير أن هذه الحملة كانت ضعيفة تعبر عن حقيقة ظروف السلطان عامر وامكانياته كما تعبر أيضا عن عدم ادراكه لقوة البرتغاليين الذين جاؤا لغزو الشرق بأسلحة حديثة وفتاكة والذين استطاعوا التصدى للحملة وهزيمتها ، ولهذا فان السلطان عامر بن عبد الوهاب عجز عن أرسال حملة أخرى الى الهند . (١٢)

وكان اهتمام البرتغاليين بالبحر الاحمر واضحا لانه يؤدى الى الاماكن المقدسة الاسلامية في الحجاز ، وكان هؤلاء البرتغاليون شديدى الرغبة في الاستيلاء على الحجاز وتدمير مكة والمدينة المنورة ، وذلك لتحقيق أهداف صليبية من ناحية ولتثبيط المقاومة التى يلقاها البرتغاليون من ناحية ثانية لقطع الاتصال بين دولة المماليك الشراكسة وبين مسلمى الهند . (١٣)

لقد حقق البرتغاليون أرباحا طائلة من وراء تجارة الشرق ، وقد وصلت هذه الأرباح أحيانا الى خمسة اضعاف تكاليف الحملات التى كانوا يرسلونها ، وأدت هذه الأرباح الى قيام نشاط رأسمالى كبير في البرتغال وفي غرب أوربا .

كانت الحملة التي أتى البوكيرك معها الى الشرق مكلفة باحتلال جزيرة سقطرى لاغلاق البحر الاحمر أمام التجار العرب واستطاع احتلال الجزيرة في عام ١٥٠٧ وأقام بها حصنا للبرتغاليين . وبقى البوكيرك بسقطرى على رأس بعض السفن لمهاجمة السفن العربية عند مدخل البحر الاحمر الجنوبى وتوجهت باقى السفن الى الهند . وقام بأعمال تخريبية في ساحل عمان حتى هرمز شرقا ، كما أغرق سبعا وعشرين سفينة كانت راسية في الميناء كما هاجم مدينة مسقط .

ولا شك في أن أعمال العنف التى أبداها البوكيرك أمام ساحل عمان كان لها تأثيرها البالغ في موقف أهالى هرمز ، فرغم استعدادات الدفاع الكبيرة التى أعدت حول الجزيرة ، فقد استسلمت هرمز أمام دالبوكيرك بعد معركة بحرية قصيرة . (١٤)

ووقعت اتفاقية عام ١٥٠٧ بين الطرفين ، أجبر فيها حاكم هرمز أن يكون تابعا لملك البرتغال ، كما أنشأ قوة سماها (جيش النصر) ليدعم النفوذ البرتغالى هناك . ولمدة امتدت لاكثر من مائة عام ازدهرت هرمز تحت سيطرة البرتغاليين الذين استغلوا موقعها الاستراتيجى الممتاز للسيطرة على كل التحركات من الخليج واليه . (١٥)

وكان غرض البوكيرك من وراء زحفه الى البحر الاحمر هو الاستيلاء على عدن باعتبار ذلك جزءا من خطته العامة وهى السيطرة على مصادر التجـــارة وغلق المنافذ العربية البحرية ، وكان البوكيرك قد ادرك قبل ذلك أن الجزء الاكبر من التجارة الشرقية يتبع طريق البحر الاحمر وليس طريق الخليج العربى وأن عدن هى أكبر مستودع تجارى هناك ، وأنه يجب السيطرة عليها لتأميـــن طريق البرتغال الجديد حول رأس الرجاء الصالح .

وقد اتجه البوكيرك الى عدن في فبراير عام ١٥١٣ على راس حملة بحرية كبيرة تتألف من عشرين سفينة ومن ألف وسبعمائة جنـــدى برتغالى ، وذلك بالاضافة الى حوالى ثمانمائة من الهنود من ساحل ملبار ، وقد بدأ الهجوم على عدن في ٢٤ مارس ١٥١٣ وكان الامير مرجان حاكما لعدن من قبل السلطان عامر بن عبد الوهاب واستمر في منصبه بعد مقتل هذا السلطان فاستنجد مرجان بالسلطان عامر الذى كان يواصل حروبه الداخلية ، واهتم السلطان بتجهيـــز حملة الى عدن لنجدتها . الا أنه من المؤكد أن عدن قد اعتمدت على نفســـها ضد المغيرين ووقف الشعب اليمنى صامدا الى جانب الامير مرجان ودافـــع عن مدينته دفاعا مستميتا .

وكانت خطة الشعب اليمنى في الدفاع عن عدن هى الاعتمـــاد بصفـــة اساسية على حصانتها الطبيعية ، وعدم منازلة البرتغاليين في معركة بحرية نظرا لقوة الأساطيل البرتغالية . وقد استغل البوكيرك هـــذا الهدوء فأنزل جنوده الى البر حيث دارت معركة كبيرة حول أسوار عـــدن استبسل فيهـــا الشعب اليمنى فاضطر البرتغاليون الى الانسحاب الى السفن بعد أن فقدوا بعض القتلى . (١٦)

وقد أثبتت خطة الأمير مرجان نجاحها ، لا في أثناء هذا الهجوم فحسب ، بل وفي أثناء معاودة البرتغاليين الهجوم عليها بعد رجوعهم من البحر الاحمر في العام نفسه ، اذ وجدوا المدينة وقد احيطت بسور جديد وأبراج عديـــدة ، ويظهر بأنها قد بنيت حديثا من قبل أهل عدن تحسبا لأى عدوان برتغالى آخر . ولم يمكن هذا الوضع البرتغاليين من تحقيق هدفهم في عدن ، بل أنه كان بمثابة ضربة شديدة الى هيبتهم البحرية والعسكرية في المنطقة العربية ، لأنه جـــاء في وقت كانوا فيه في ذورة قوتهم . (١٧)

وبالرغم من فشل البوكيرك في الوصول الى (جده) أو في الاستيلاء على (عـــدن) فقد نجح في أن يقود خطوات البرتغاليين داخل البحر الاحمر ، كما نجح في أن يرسم لخلفائه خطة غزو هذا البحر الى اقصى شماله ، حتى تمكن

العثمانيون فيما بعد من اغلاقه أمام البرتغاليين بـــل وأمام القوى الاوربيـــة الأخرى .

وأعد البوكيرك **حملة جديدة** مكونة من ٢٦ سفينة ، ١٥٠٠ برتغالـــى ، ٧٠٠ هندى ، وغادر الهند في عام ١٥١٥ الى البحر الاحمر ، ولكن قيام ثورة في هرمز جذبته اليها وعاد مريضا الى (جوا) وتوفي في ١٥ ديسمبر ١٥١٥ . (١٨)

ازداد خطر البرتغاليين بعد وفاة البوكيرك وعينوا (لوبوسواريز) نائبا لملك البرتغال في الهند . وكان هدف البرتغاليين في ذلك الوقت القضاء علـــى قوة المماليك في البحر الاحمر واغلاقه في وجه السفن العربية . وعندما وصل لوبو سواريز الى عدن لم يهاجمها بل انه طلب من واليها أن يمده بالمؤن اللازمة للحملة وببعض المرشدين البحريين .

واضطر الامير مرجان حاكم عدن أن يلبى مطالب البرتغاليين حتـــى لا يحتلوا المدينة . ولم يكن هذا الموقف تخاذلا من قبله بدليل انه قام اثناء وجـــود الحملة في داخل البحر الاحمر بعمل كافة الاستعدادات الممكنة للدفاع عن عدن حتى لا يفاجأ بهجوم البرتغاليين عليها وهم في طريق عودتهم الى الهند ، كما انه جدد استعداداته للمرة الثانية عندما علم بوجود حملة برتغالية جديدة على مقربة من عدن في عام ١٥٢٠ . (١٩)

وقد اشارت بعض المصادر الأوربية ، الى أن الامير مرجان لم يرحب بالبرتغاليين فحسب ولكنه قبل أن يسلمهم عـــدن . بيد أن تدقيق النصوص العربية المعاصرة ، تبين أن الامير مرجان لم يعد البرتغاليين بتسليم عدن اليهم ، ولكن كل ما فعله هو انه وافق على امدادهم بما يحتاجون اليه من مؤن ومرشدين وقد قبل ذلك خوفا من مهاجمتهم عدن .

ويبدو أن لوبو سواريز نفسه لم يكن قد وضع في خطته الاســـتيلاء على عدن ، بل أجل مهاجمتها لحين عودته من البحر الاحمر ، عندما يكون قد تمكن من القضاء على الاسطول المصرى الذى كان يجرى اعداده في السويس . الا أن سواريز لم يكن مصيبا في تقديراته ولم يقم البرتغاليون بمهاجمة عدن بسبب ما لحق بقواتهم من خسائر ، ولعدم تأكدهم من نتائج ذلك الهجوم ، وتسبب هذا الفشل الذى منى به البرتغاليون في عزل سواريز من منصبه . (٢٠)

وفي ٢٥ فبراير ١٥٢٣ هاجم البرتغاليون ميناء الشحر بعد أن احرقوا خمس سفن كانت راسية به ، والحقوا اضرارا بالغة بالمحاصيل الزراعية وكان

بدر بو طويرق قد اعاد الأمير مطران حاكما على مدينة الشحر . وكانت حجة البرتغاليين في غزو مدينة الشحر ، أن تاجرا برتغاليا يسمى (الفونس دى فيجا) مات في الشحر وأن بدر بوطويرق ، استولى على أمواله ــ حسب ادعاءاتهم ــ وطلب قائد الاسطول البرتغالى تسليم تلك الاموال له دون تأخير . (٢١)

وتفرق الغزاه في جماعات صغيرة في المدينة ونهبوا المتاجر ، واشعلوا فيها النيران . ومع استمرار القتال سقط العشرات من أبناء الشعب اليمنى في الشحر بين قتيل وجريح وكان الامير مطران ورفاقه الستة على رأس المقاتلين ضد البرتغاليين المعتدين .

وانسحب البرتغاليون الى سفنهم تاركين معظم القتلى ، فأحرقهم اهل الشحر ، وغادر البرتغاليون الشحر بعد ان رأوا جيش الامير عطيف بن على دحدح الذى استطاع اعادة الأمن والاستقرار الى المدينة الباسلة . أما جثث القادة السبعة فان ستا منها دفنت في قبر واحد وهو القبر الذى اطلق عليه قبر الشهداء السبعة . أما جثمان الشهيد السابع وهو الشيخ أحمد بن عبد الله بلحاج بافضل ، فقد أصر أهالى مدينة (تريم) على دفنه داخل قبر أبيه المعروف الآن بقبة (بلحاج) .

ويقدر عدد الذين استشهدوا دفاعا عن مدينة الشحر ــ طبقا لتقديرات الاستاذ محمد عبد القادر بامطرف ــ بنحو سبعمائة وأحد عشر رجلا بينهم ثمانية وخمسون من الصومال والهنود ، وعدد المنازل التى هدمت من الحرائق ثلاثمائة دارا ، والحوانيت التى أحرقت أو نهبت سبعمائة وأربعون حانوتا ، كما أحرقت اثنتان وثلاثون معصرة زيت . (٢٢)

وهكذا استبسل الشعب اليمنى في الدفاع عن مدينة الشحر ، كما سبق وأن دافع عن مدينة عدن ضد المعتدين البرتغاليين وضرب بذلك أروع الامثلة في البطولة والتضحية . وبالنسبة لموقف بدر بوطويرق ، فقد تضاربت الروايات عن موقفه من البرتغاليين ، ولكن من المرجح أنه كان لا يقل وطنية عمن استشهدوا في الدفاع عن مدينة الشحر .

واستمر البرتغاليون في ارسال الحملات الحربية بعد ذلك ، منها تلك الحملة التى كانت بقيادة (دى سلفيرا) والتى وصلت الى عدن في عام ١٥٢٣ واجبروا حاكمها ــ الذى خلف الامير مرجان ــ على عقد معاهدة تنص على أن تدفع عدن ضريبة سنوية للبرتغاليين وعلى أن تفتح ميناءها للسفن البرتغالية (٢٣) . غير أن السلطات البرتغالية رفضت ابرام هذه المعاهدة ، وقد أدى ذلك الى ارسال حملة برتغالية أخرى في عام ١٥٢٥ قامت بضرب

عدن بالمدافع وهـــى في طريقها الى مصوع . وعقـــدت معاهدة جديدة بيـــن (دى سلفيرا) وحاكم عدن في عام ١٥٣٠ وهى لا تختلف كثيرا عن المعاهـــدة السابقة . (٢٤)

وقد اثارت هذه المعاهدة الشكوك حول حاكم عدن ومدى وطنيته ، بل انه تعرض للنقد الشديد ، ولكن يبدو أن حاكم عدن كان يقصد من وراء التوقيع على تلك المعاهدة مجرد ابعاد الخطر البرتغالى عن البلاد . اذ انه قام باعتقال البرتغاليين الذين بقوا في عدن وسخرهم في صناعة الأسلحة وفي نفس الوقت أرسل الى السلطان العثمانى سليمان القانونى يبلغه بالدخول في طاعته . (٢٥)

الغزو العثمانى :

كان الغزو البرتغالى لليمن هو أول غزو عسكرى أوربى مسيحى لاقليم **عربى في الشرق الاسلامى** في مطلع العصور الحديثة . وقد وقع هذا الغزو في وقت كانت تقوم فيه ثلاث دول اسلامية كبرى في الشرق الاسلامى : دولـــة المماليك الشراكسة في مصر والشام ، وكانت لها السيادة على الحجاز وكان لها نفوذ على جزيرة قبرص وتمثل هذا النفوذ في دفع جزية سنوية الى السلطان حتى نهاية عصر المماليك في عام ١٥١٧ ، ثم الدولة الصفوية في فارس ، ثـــم الدولة العثمانية في الاناضول والبلقان . **ولم تمر سنوات ذات عدد على بـــدء وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى حتى ثبت حروب ضارية غير مسبوقة بمثال بين هذه الدول الاسلامية الثلاث أسفرت عن تغييرات جذرية في الاوضاع السياسية في الشرق الاسلامي كان لها آثارها على الموقف العسكري والسياسي بين البرتغاليين من ناحية وتلك الدول الاسلامية من ناحية أخرى** . (٢٦)

أما عن الصراع بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية فقد انتهى بانتصار العثمانيين عندما دخل السلطان العثمانى سليم الأول في عام ١٥١٥ العاصمة (تبريز) واستحوذ على عرش الشاه وكنوزه وتحفه ونسائه ، واستولى على كثير من بلاد أرمينيه الغربية والجزء الشمالى من بلاد ما بين النهرين وجميـــع الأراضى الجنوبية حتى الرقة والموصل . وقد ترتب على هـــذه الحـــرب أن هبطت الدولة الصفوية من دولة من الدرجة الأولى الى دولة من الدرجة الثانية تسعى للثأر لهزيمتها والكيد للدولة العثمانية .

واتجه سليم الأول بعد عام وبعض عام لمحاربة دوله المماليك الشراكسة ، وكانت أسباب النزاع قد توفرت بين الدولتين . واستطاع الجيش العثمانى ان يوقـــع هزيمة ساحقة بالقوات المملوكية في معركة مرج دابـــق شمال حلب في اليوم الرابع والعشرين من شهر اغسطس عام ١٥١٦ (٢٧) . وبعـــد مصرع

السلطان الغورى ـــ سلطان المماليك ـــ انتصر سليم الأول علـــى السلطان الجديد طومان باى الثاني في موقعة الريدانية من ضواحي القاهرة في اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير عام ١٥١٧ ودخل العثمانيون القاهرة في ضحى ذلك اليـــوم .

وكان الحكام المسلمون في الهند قد طلبوا من السلطان المملوكى (الغورى) مساعدتهم ضد البرتغاليين . فأرسل اليهم حملة في عام ١٥١٥ وكان الهـــدف النهائى من تلك الحملة هو الوصول الى الهند بعد أن تستولى على عدن وقد أرادات دولة المماليك أن تتخذها قاعدة عسكرية للهجوم منها على الاسطول البرتغالى في الهند . وكان هدف الغزو المملوكى اقامة قواعد عسكرية بحرية على سواحل اليمن ، وأهمها عدن أبتغاء غلق البحر الاحمر أمـــام البرتغاليين غلقا مؤقتا حتى يتم طردهم من مواقعهم في البحار الشرقية .

واتجه الاسطول المملوكى الى اليمن ، وطلب المماليك من السلطان عامر بن عبد الوهاب أن يسمح لهم بالنزول في اليمن تمكينا لهم من محاربة البرتغاليين ورفض السلطان طلبهم على الرغم من انه كان قد سبق أن وافق على أن يقيم المماليك قواعد بحرية على سواحل اليمن (٢٨) . ودارت المعارك بين عامر بن عبد الوهاب والمماليك وهزم عامر بن عبد الوهاب على أيدى المماليك ودخلوا زبيد حيث أعمل المماليك النهب والسلب فيها سبعة وعشرين يوما (٢٩) . وصادر حسين الكردى الاموال من التجار والعلماء وفرض شتى الضرائب على زبيد ، وقام الاسطول المملوكى بعد ذلك بمحاصرة عدن ونزل المماليك فيها . وكادوا ينجحون في الاستيلاء عليها لولا أن نجدات عسكرية وصلت الى عدن في الوقت المناسب أرسلها عامر بن عبد الوهاب ، فأخفق المماليك في احتلالها ورفعوا الحصار عنها في اليوم التاسع عشر من شهر اغسطس عام ١٥١٦ وتوجهوا بما معهم من أموال الشعب اليمنى التى نهبوها الى جدة . وتركوا بعض قادة المماليك لدعم الحكم المملوكـــى في القطاع المصرى من اليمن وقتل عامـــر بـــن عبد الوهاب على أيدى المماليك .

وعندما وصلت أنباء سقوط دولة المماليك الشراكسة في مصر الى القوة المملوكية في اليمن شاع الاضطراب بين أفرادها وثار بينهم جدل عنيف حول الموقف الذى يجب أن تتخذه هذه القوة العسكرية من الدولة العثمانية وقـــرروا الاعتراف بالسيادة العثمانية حتى يقوى جانب الحملة في اليمن .

وكان قد قام صراع عنيف على الحكم في اليمن في ذلك الوقت بين الزيديين بزعامة الامام شرف الدين ، وبقايا الاسرة الطاهرية ، والمماليك الشراكسة .

وكانت القوة المملوكية قد استولت على صنعاء وشرعت في حصار الامام شرف الدين في ثلا ، فرفعت الحصار عنها وعادت الى صنعاء وقام قائد المماليك بجمع أهالي صنعاء في الجامع الكبير ، وأعلن نبأ سقوط دولة المماليك وشنق السلطان المملوكي طومان باى (٣٠) واستيلاء السلطان العثماني سليم الأول على مصر ، وأبلغهم أن المماليك في اليمن قد استقروا رأيا على الخضوع للسيادة العثمانية وغادر قائد المماليك صنعاء بعد أن ترك بها حامية صغيرة وتوجه الى زبيد للاقامة بها وذلك في يونيو عام ١٥١٧ .

ويلاحظ أن ولاء المماليك فياليمن للعثمانيين لم يكن ولاء خالصا بل كان (ولاء ضرورة) تشوبه شائبة المصلحة الخاصة . فالمماليك كانوا قبل كل شيء يشكلون قوة عسكرية طارئة في اليمن . وكان موقفهم حرجا تجاه القوتين الأخرين : الزيديين والطاهريين . وازداد موقفهم حرجا بعد سقوط دولة المماليك . وكان المماليك يخشون بطش العثمانيين . وقد ازداد هذا الخوف عندما وصلت الى مسامعهم أخبار المذابح الجماعية التى أمر بها السلطان العثمانى سليم الأول للمماليك عقب دخوله القاهرة في يناير عام ١٥١٧ . وكان عدد من المماليك قد فروا الى اليمن وأبلغوا زملاءهم تفاصيل هذه المذابح المروعة . وأخيرا كان المماليك مكروهين من الشعب اليمنى لأنهم انصرفوا الى أعمال السلب والنهب لانقطاع الموارد المالية عنهم بعد سقوط دولة المماليك ، فاعتمدوا على موارد اليمن ينهبون منها ما استطاعوا اليها سبيلا .

وبدأ العثمانيون يستعدون للحرب ضد البرتغاليين في البحار الشرقية بوجه عام وفي البحر الاحمر بوجه خاص . اذ كان على العثمانيين أن يعالجوا أهم المشاكل السياسية والاقتصادية التى واجهوها في مصر ، بعد أن حول البرتغاليون طريق التجارة عنها وعن منطقة الشرق الاوسط الى رأس الرجاء الصالح ، مما جعل الحرب مع البرتغاليين ضرورة حتمية . وقد زاد من خطورة البرتغاليين — في نظر العثمانيين — تحالفهم مع الشيعة الصفويين في ايران الذين كانوا على عداء مذهبى مع الدولة العثمانية . كما حرص العثمانيون على الدفاع عن الاماكن المقدسة في الحجاز ضد الخطر البرتغالى لينالوا بذلك شرف حماية (الحرمين الشريفين) حتى تكون لهم الزعامة في العالم العربى والاسلامى . (٣١)

ورثت الدولة العثمانية تركة دولة المماليك الشراكسة ، وكانت تركة مثقلة. وتزاحمت عليها مشكلات هذه الدولة التى غربت . وكان من أهم جوانب هذه التركة المثقلة مواجهة الخطر البرتغالى في البحر الأحمر الذى كان قد استفحل شره ، والتفوق البرتغالى العسكرى الساحق في منطقة الخليج العربى ،

وتحول طريق التجارة العالمية الى طريق راس الرجاء الصالح ، وهو التحول الذى أطلق عليه الانقلاب التجارى العالمى ، والانهيار الاقتصادى الذى حدث في المنطقة العربية نتيجة هذا التحول .

ويلاحظ أن السلاح البحرى لدى البرتغاليين والمزود بالمدفعية الحديثة بالنسبة للقرن السادس عشر ــ كان يشكل القوة الضاربة الرئيسية في قواتهم المسلحة بينما كان الجيش البرى للعثمانيين هو القوة الضاربة الرئيسيـــة في القوات العثمانية المسلحة . وكان العثمانيون يعتمدون عليه اعتمادا رئيسيا في معظم حروبهم . أما السلاح البحرى العثمانى فكان يأتى في الصف الثانى على الرغم من أن الدولة العثمانية اهتمت اهتماما شديدا جدا بتعزيز قواتها البحرية سواء في حوض البحر المتوسط او البحر الاحمر أو البحر الأسود . وقد خاض أسطولها معارك بحرية رهيبة في حوض البحر المتوسط بوجه خاص ضد الدول الأوربية واستطاع أن يحرز انتصارات رائعة في معظم المعارك التى خاضها ضد أساطيل هذه الدول . ومع ذلك فقد توفرت لدى البرتغاليين أسباب الغلبة على القوات العثمانية في صراع يأخذ مكانه في البحار ، كما توفرت للبرتغاليين نفس هذه الأسباب في انتصاراتهم على القوات العربية في منطقة الخليج وجنـــوب الجزيرة العربية (٣٢) .

وبدأ العثمانيون ينفذون جزءا من خطتهم العامة في البحر الاحمر والتـــى تهدف الى مواجهة البرتغاليين هناك ، كما أنهم بدأوا يمدون نفوذهم المباشر الى اليمن وسواحله الجنوبية ، وعززوا ذلك بارسال عدد من الحملات البحرية في عام ١٥٢٦ وعام ١٥٣٠ ــ ١٥٣١ . ولكن كان مـــن البديهى الا تقف جهـــود العثمانيين في البحر الاحمر عند هذا الحد ، خاصة وان النفوذ العثمانى حينذاك امتد الى سواحل الخليج العربى الشمالية فأصبحوا بذلك وجها لوجه أمـــام البرتغاليين ، وتطلب الامر من العثمانيين اتخاذ موقف مماثل في المياه العربيـــة الجنوبية .

أما **الحملة العثمانية الرئيسية الى اليمـــن** فهى تلك التـــى تحركت مـــن السويس في يونيو عام ١٥٣٨ . وكان قوامها ثمانين سفينة تحمل عشرين الف جندى جمعتهم الدولة العثمانية من قواتها المرابطة في مصر والشام . وتولـــى قيادة الحملة سليمان الخادم وكان للحملة هدفان : فتح بلاد اليمـــن لاتخاذها قاعدة عسكرية هجومية ، فاذا تم لها تحقيق هذا الهدف انطلقت الى الهنـــد لضرب المراكز البرتغالية فيها .

وقد وصلت الحملة العثمانية الى عدن في اليوم الثالث من اغسطس عام

١٥٣٨ . (٣٣) وكـــان سليمان الخادم ــ قائـــد الحملة ــ قد اتصل بالامراء الحاكمين في جهات البحر الاحمر وخاصة أمراء الساحل اليمنى مثل أميرى عدن والشحر بدر بوطويرق الذى بادر الى اعلان ولائه للعثمانيين ، بينما راوغهـــم عامر بن داود الطاهرى .

ولكن عند وصول الحملة العثمانية الى عدن اضطر عامر بـــن داود أن يغير من سياسته . ولهذا فقد أحسن استقبال الحملة وفتـــح امامها أبـــواب المدينة وقام الجنود العثمانيون بسلب المدينة ونهبها وتوجه عامر بن داود الـــى سفينة القيادة العثمانية ومعه ستة من كبار اتباعه لمقابلة سليمان الخادم ــ بناء على دعوته ــ وقد أحسن استقبالهم في باديء الأمر حتى وصله نبـــأ احتـــلال جنوده لمدينة عدن. فأمر بشنق عامر بن داود ورفاقه على صارى سفينته (٣٤).

وهكذا اتصف الحكم العثمانى في اليمن منذ انبداية بالغدر والخيانة وكان هذا العامل من الامور الأساسية التى أدت الى قيام العديد من الانتفاضات ضد العثمانيين في اليمن .

ثم عين سليمان الخادم أحد ضباطه حاكما على عدن ، وأقلع بأسطوله الى الهند لمواصلة الحرب ضد البرتغاليين ، الا انه لم يصادف نجاحا هنـــاك واندحرت قواته في (جوا) ، ومن ثم عاد الى عدن في ٥ ديسمبر عام ١٥٣٨ . ولرغبته في تأمين هذا الموقع الهام ، نقل مائة قطعة من مدفعية الاســـطول الى عدن ومعها كمية هائلة من الذخيرة ، كما ترك خمس سفن في الميناء وحمايـــة من ٥٠٠ رجل عليها سنجق ثم توجه الى البحر الاحمر (٣٥) .

وأرسل سليمان الخادم بمبعوثيه الى زبيد ، كى يطلبوا من الأمير احمـــد حاكم المدينة أن يأتى اليه كى يقدم ولاءه ، ولما حضر الامير احمد قام سليمان الخادم بقتله مثلما فعل مع عامر بن داود ، كما حصن المدينة ووضع فيها مدافع وذخيرة وترك فيها أربع سفن لحراسة الشاطىء ثم عاد الى الاستانة . (٣٦)

واستطاع العثمانيون تحصين جزيرة قمران ، وانزال كميات كبـــيرة من المدافـــع الضخمة التى كانت في الاسطول العثمانى ، وكذلك اخضاع ميناء جيزان وتحصينه . وقـــد أدى هـــذان الاجراءان العسكريان في جزيرة قمران وميناء جيزان الى تمكين العثمانيين من السيطرة الى حد كبير علـــى المدخـــل الجنوبي للبحر الاحمر . ومع ذلك فقد كانت هذه الانجازات التى حققتها الحملة مقصورة على السواحل اليمنية ، أما داخل اليمن فقد ظل تحت حكـــم الائمـــة الزيديين (٣٧) .

وأمام السياسة العثمانية في اليمن والتى اتصفت بالبطش ، والغدر والخيانة ، قام الشعب اليمنى في عدن بالثورة ضد الاتراك العثمانين وذلك في عام ١٥٥١ . واستطاع الاسطول العثمانى بقيادة (برى) القضاء على الثورة بقصف تحصينات عدن ، واعاد الاستيلاء عليها وطرد البرتغاليين الذين كانوا قد انتهزوا الفرصة ونفذوا الى هناك . ثم ترك بها حامية قوية وأبحر عائدا الى مصر .

واستطاع (المطهر) أن يخرج العثمانيين من جميع أقاليم اليمن ما عدا (زبيد) وبعض المناطق التهامية بها . وقد تضافرت العوامل العديدة في اشتداد مقاومة الشعب اليمني ضد الاتراك العثمانيين ، فقد أدت سياسة الولاء للأتراك الى اضطراب احوال الجنود ، مما ادى بالتالى الى اتجاه هؤلاء الجنود الى ظلم الشعب ، كما انخفضت قيمة العملة وادى ذلك الى انهيار الأوضاع الاقتصادية عامة في ذلك الوقت (٣٨) .

وكان لقوة شخصية المطهر ومهارته السياسية والعسكرية ووجوده على راس المقاومة اكبر الاثر في ازدياد تلك المقاومة ، كما نجح المطهر في الاحتفاظ بوحدة الجهة الزيدية تحت زعامته في ذلك الوقت بالاضافة الى نجاحه في الاتصال بالعناصر اليمنية الاخرى مثل زعماء الاسماعيلية . وأمام اشتداد المقاومة اليمنية سارع الحاكم العثمانى (رضوان باشا) الى عقد الصلح مع المطهر وذلك في فبراير عام ١٥٦٧ . وقد أصر المطهر على أن يحتفظ بالمناطق التى استولى عليها من خلال هذه الحرب ثمنا للصلح ، فضم اليه الكثير من المناطق . وتوج المطهر انتصاراته في الشمال بالاستيلاء على (صعدة) (٣٩) .

وكان (المطهر) مستندا الى قوى الشعب اليمنى الثائرة والساخطة على الحكم العثمانى ، والتى كانت مستعدة للتضحية والفداء من أجل التخلص من هذا الحكم ، والتى كانت مستعدة كذلك للانضواء تحت لواء زعيم قوى يستطيع أن يقود الثورة وأن يوحد عناصرها المتناثرة .

وكانت استجابة القبائل لدعوة المطهر فورية وقوية لما كان لديها من أسباب موضوعية تدعوها الى الثورة ، فقامت بمهاجمة الحاميات العثمانية في كل مكان وكانت بعض ثورات هذه القبائل تتسم بالروح الفردية المحلية البحتة ، ولكن قوة المطهر الذاتية كانت كفيلة بضم هذه الثورات المحلية الى الثورة الشاملة وجعلها تسير في الاطار العام الذى رسمه المطهر .

وبالرغم من أن موت المطهر في عام ١٥٧٣ قد أتاح للعثمانيين مزيدا من السيطرة وبسط النفوذ ، الا أن اشتداد المقاومة اليمنية بعد ذلك ادى الى لجوء

العثمانيين الى عقد الصلح مع الامام المنصور القاسم بن محمد عـــام ١٦١٧ واعترفت الدولة العثمانية بموجب هذا الصلح للامام بما تحت يديه من البـــلاد اليمنية لمدة عشر سنوات مقابل اعترافه بسيادتها في بلاده (٤٠) .

لقد وجد الاتراك العثمانيون انفسهم في اليمن يواجهون تيارا عنيفا مـــن التذمر والعداء ، والثورات المستمرة والمقاومة العنيفة الضاريـــة . وكـــانت القوات العثمانية تتكبد بصفة دائمة خسائر فادحة في الاموال والأرواح ممـــا جعل العثمانيين يفكرون في الجلاء عن اليمن تخلصا من تلك الخسائر الفادحة حيث لقنهم الشعب اليمنى دروسا لن ينسوها .

ولا شك أن وقوع اليمن بعيدة عن عاصمة العثمانيين بما يقـــرب من الفى ميل ، وصعوبة نقل الامدادات اليها ، والتكاليف الباهظة التى كـــان يتحملهـــا الاتراك العثمانيون للانفاق على جنودهم في اليمن ، كان كل ذلك يدعم فكـــرة الجلاء عن اليمن في عام ١٦٣٥م استجابة طبيعية لما فرضته المقاومة العنيفة التى قام بها الشعب اليمنى ضد العثمانيين (٤١) .

وقد ترتب على استمرار الفوضى وعدم الاستقرار عدم تمكن الاتـــراك من فرض النظام الاقطاعى على اليمن على الرغم من انهم فرضوه على كل بلدان الامبراطورية العثمانية . وعندما غادر الاتراك العثمانيون اليمن تركوها موزعة بين محاولات التجميع واقامة حكم مركزى ، وبين محاولات التجزئة التى كانت لها الغلبة في معظم الاحيان .

وقد فشل الحكم العثمانى في تحقيق وحدة اليمن رغم استناده الى عامل الدين المشترك ، واتسم حكمه بكثير من الظلم ، ويضاف الى ذلك الكيان القبلى الذى ارتبط بعادات القبيلة في التنقل وكثرة المنازعات (٤٢) .

لقد فشل الاتراك العثمانيون فيالحقيقة في تحقيق سيطرتهم على القبائل اليمنية ، رغم اتباعهم الاساليب المختلفة للوصول الى ذلك ، كما فشلوا ايضا في تغيير النظم أو العلاقات القبلية السائدة في اليمن . فرغم نجاح العثمانيين في تحطيم القوى القبلية أحيانا عن طريق استخدام القوة والعنف وأحيانا أخرى في إضعاف العلاقات القبلية ، الا أن هذا النجاح أو ذاك ظل عديم الأثر . فقد ظلت هذه القبائل مصدر قلق دائم للحكم العثمانى في اليمن ، فقد كانت هـــذه القبائل هى صاحبة السلطة الفعلية في اقاليمها ، ليس في أوقـــات الحـــروب والثورات فحسب ، بل كان ذلك في أوقات السلم والهدوء أيضا . وكان على العثمانيين أن يتقربوا الى رؤساء هذه القبائل بطريقة أو بأخرى حتى يضمنوا خضوعهم لسيطرتهم ، أو حتى يتأكدوا من هدوئهم على الأقل . وبمعنى آخر

كانت سلطة العثمانيين في الواقع لا تتعدى المدن الهامة او القلاع والحصون المنتشرة في البلاد وذلك بالاضافة الى الاقاليم القريبة منها والمحيطة بها .

نهاية الصراع البرتغالى العثمانى :

اراد البرتغاليون أن يردوا ردا حربيا على الحملة الكبرى التى أرسلتها الدولة العثمانية الى الهند في عام ١٥٣٨ والتى أزعجت البرتغاليين ، وأرادوا أن يثبتوا للعثمانيين أنهم لا يزالوا سادة البحار وأن في مقدورهم أن يصلوا الى أقصى الطرف الشمالى للبحار العربية . وفي نفس الوقت تكون الحملة البرتغالية وسيلة عملية لتدمير القوات البحرية العثمانية ، فلا تكون مصدر خطر داهم يتهدد وجودهم في الهند والجزيرة العربية .

وكانت خطة البرتغاليين قد تغيرت منذ عهد اصطدامهم بالمماليك من مجرد مهاجمة السفن التجارية العربية في عرض البحار ، أو من مجرد اغلاق المنافذ العربية الى الرغبة في القضاء على قوة العثمانيين البحرية في البحر الاحمر .

وتنفيذا للمخطط البرتغالي أرسل البرتغاليون في أوائل عام ١٥٤١ حملة بحرية كبرى تجاوز عدد سفنها الثمانين ، وكانت وجهتها السويس على أساس أن هذا الميناء قد غدا قاعدة بحرية عثمانية رئيسية في البحر الاحمر ، وعقدت قيادة الحملة لنائب ملك البرتغال في الهند (استانو داجاما) وهو الابن الاكبر لفاسكوداجاما — وكانت الاوامر التى يحملها تدمير تلك القاعدة البحرية العثمانية وتحطيم سفن الاسطول العثمانى الراسية في ميناء السويس (٤٣) .

وقام قائد الحملة وهو في طريقه الى السويس بمهاجمة ميناء سواكن وجزر (دهلك) بالمدافع وضربها وأسر بعض سكانها ، كما هاجم أيضا بعض السفن الشراعية الصغيرة في (القصير) و (الطور) ولم يجرؤ الاسطول البرتغالي بعد ذلك على التقدم الى السويس لمباغتة الاسطول العثماني بها ، بعد أن أرسل قائد الحملة بعض السفن الاستطلاعية الى السويس لتقصى أخبار العثمانيين ، فعادت هذه السفن مسرعة وأبلغت القائد البرتغالى أن الاسطول العثمانى في حالة استعداد تام (٤٤) . كما أن العثمانيين كانوا على وشك إرسال بعض السفن الى عدن .

وكان للحملة البرتغالية عام ١٥٤١ آثار بعيدة على الجانبين العثماني والبرتغالى . فقد طور العثمانيون خططهم الحربية تجاه الوجود البرتغالى في البحار الشرقية فعملوا على غلق البحر الاحمر في وجه السفن البرتغالية وقطع

الاتصال بين البرتغاليين وحلفائهم الاحباش ومد النفوذ العثمانى الى شرق الجزيرة العربية لطرد البرتغاليين من هذه المنطقة من ناحية ، ولتوجيه الضربات من منطقة الخليج العربى الى الدولة الصفوية من ناحية أخرى .

وعمل العثمانيون على دعم قواتهم البحرية في البحر الاحمر واخذت وحدات الاسطول العثمانى تجوب بصفة منتظمة جنوب البحر الاحمر وباب المندب منعا لأى اتصال يتم بين الاحباش والبرتغاليين في الهند . وفي نفس الوقت عزز العثمانيون قواتهم في اليمن لتشديد قبضتهم على أرجاء اليمن بسواحلها بصفة خاصة واتخذ العثمانيون من اليمن عامة وعدن خاصة قاعدة عسكرية لضرب المراكز البرتغالية في شرقى الجزيرة العربية وللسيطرة على البحر الاحمر ، وازداد نشاط الترسانة البحرية في السويس في بناء سفن حربية عثمانية جديدة (٤٥) .

أما من ناحية البرتغاليين فقد شعر هؤلاء بخطورة الاقدام على مثل هذا المشروع مرة أخرى حتى لا يعرضوا أساطيلهم للدمار في داخل البحر الاحمر الذى أصبح حينئذ بمثابة بحيرة عثمانية ، ولذلك ركز البرتغاليون جهودهم بعد ذلك في الحبشة توطئة لعمل مشترك كبير في داخل هذا البحر ولكن منيت جهودهم بالفشل .

ورأى ملك البرتغال انه من الافضل مهادنة العثمانيين بدلا من استفزازهم فعرض ملك البرتغال عقد اتفاقية تجارية مع الدولة العثمانية تنص على موافقة البرتغاليين على ارسال كميات معينه من التوابل الى الموانى العثمانية في مقابل سماح العثمانيين للسفن البرتغالية بدخول البحر الاحمر . ولكن اخفقت المفاوضات لأن الدولة العثمانية فضلت سلامة ممتلكاتها في مناطق البحر الاحمر على المكاسب المادية . وكان العثمانيون لا يطمئنون الى البرتغاليين ويعتقدون ان هؤلاء الغزاه المسيحيين لا يؤمن لهم جانب .

وقام ملك البرتغال بمحاولة أخرى في عام ١٥٤٤ لعقد صلح مع الدولة العثمانية ، ولكن قوبلت تلك المحاولة ايضا بالرفض وصمموا على المضى في خططهم الحربية من البحر الاحمرفي وجه البرتغاليين ، ومنع اتصال البرتغاليين بالاحباش وطرد البرتغاليين من مراكزهم في شرقي الجزيرة العربية ومد النفوذ العثمانى الى هذه المنطقة . (٤٦)

كما ادى تطور الاحداث في أوربا الى ضعف موقف البرتغاليين في الشرق بوجه عام فقد دخلت البرتغال في حكم اسبانيا لمدة ستين عاما (١٥٨٠ — ١٦٤٠) نتيجة توحيد اسبانيا والبرتغال في تاج واحد ، وذلك عندما توج فيليب الثانى

ملك أسبانيا (١٥٨٠ — ١٥٩٨) ملكا للبرتغال في نفس الوقت . (٤٧)

وقد بدأ النفوذ البرتغالى يأخذ طريقه الى الضعف والانهيار للمنافسة الخطيرة التى واجهها على يد الانجليز والهولنديين . وكان التنافس بين هذه القوى المختلفة يؤدى الى الصدام المسلح بين بعضها البعض في أغلب الأحيان ، فقد حاول البرتغاليون عبثا صد هؤلاء التجار الجدد عن مراكز التجارة الشرقية ، كما عمل هؤلاء من جانبهم على طرد البرتغاليين من البحار الشرقية للاستئثار بتجارة الشرق .

هذا بالاضافة الى الفساد الذى انتشر بين الضباط والجنود البرتغاليين والذى كان سببا رئيسيا من أسباب ضعف البرتغاليين .

لهذا يمكن القول أن القضاء على النفوذ البرتغالى في الشرق لم يتم على أيدى العثمانيين وذلك بالرغم من محاولتهم المبكرة للقضاء على هذا النفوذ في الهند كما في الحملة العثمانية عام ١٥٣٨ ، وعلى السواحل العربية الجنوبية كما حدث على يد بري باشا في عام ١٥٥١ . ولكن يمكن القول أن العثمانيين قد نجحوا في ابعاد النفوذ البرتغالى عن البحر الاحمر .

الهوامش

(١) Coupland Reginold: **East Africa and its Invaders**, pp. 18,19.

(٢) د. محمد زنيبر : صفحات من التضامن القومي بين المحيط والخليج .
(مستخرج من بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية . ج ٢ ، ص ٤٦٠) .

(٣) Play fair R.L.: A **History of Arabia Felix Yemen** P. 96.

(٤) بونداريفسكي : الخليج العربي بين الامبرياليين والطامعين في الزعامة . ص ١٧ .

(٥) قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني . ص — ص ٩١ — ٩٢ .

(٦) د. أحمد عبدالكريم : دراسات تاريخية . ص ١٩٢ .

(٧) د. محمد محمود الصياد : أثر العرب والاسلام،ص — ص ٣١٩ — ٣٢٠ .

(٨) د. جمال زكريا قاسم : أثر الاستعمار الاوربى في تفكيك الروابط بين الخليج العربى وشرق افريقيا — مستخرج من بحوث مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية.ج ٢.ص ٨٠٨ .

(٩) بونداريفسكى : المصدر السابق،ص ٢٢ .

(١٠) د. عبدالعزيز الشناوي : المراحل الاولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية . ص ٦٢١ .

(١١) د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الاول لليمن . ص ٥٠ .

(١٢) د. فاروق اباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر . ص ٣٨ .

(١٣) د. عبد العزيز الشناوي : المصدر السابق . ص ٦٢٣ — ٦٢٤ .

(١٤) د. السيد مصطفى سالم : المصدر السابق . ص ١٣ .

(١٥) د. حسن احمد ابراهيم : المطامع الاوربية في الخليج (مستخرج من بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية . ج ٢ ، ص ٨٨٨) .

(١٦) د. السيد مصطفى سالم : المصدر السابق . ص ٧٣ .

xx انظر كذلك أحمد فضل العبدلي : هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن . ص ٩٢ .

(١٧) د. طارق نافع الحمداني : عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين (مستخرج من مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية . العدد ٤٢ ، ص ١٧١) .

(١٨) د. عبد العزيز الشناوي : المصدر السابق . ص ٦٢٩ .

(١٩) د. فاروق اباظة : المصدر السابق . ص ٤٦ .

(٢٠) د. طارق نافع الحمداني : المصدر السابق . ص ١٧٢ .

(٢١) محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة . ص ٣ .

(٢٢) نفس المصدر . ص ٧ — ص ٩ .

(٢٣) Kammerer, **A La Mer Rouge.** Tome II PP. 283, 286.

(٢٤) **Op. Cit** PP. 287, 288.

(٢٥) د. السيد مصطفى سالم : نفس المصدر . ص ١١١ .

(٢٦) د. عبدالعزيز الشناوي : نفس المصدر . ص ٦٣٥ — ص ٦٣٦ .

(٢٧) نفس المصدر . ص ٦٣٨ .

(٢٨) Stripling G.W. F: **The Ottoman Turks and the Arabs,** P. 31.

(٢٩) قطب الدين النهروالي : المصدر السابق . ص ٢٢ .

(٣٠) نفس المصدر . ص ٢٤ .

(٣١) د. فاروق اباظة : المصدر السابق . ص ٤٩ .

(٣٢) د. عبد العزيز الشناوي : المصدر السابق . ص ٦٥٧ .

(٣٣) د. فاروق اباظة : المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٣٤) قطب الدين النهروالي : المصدر السابق . ص ٨٠ — ص ٨١ .

(٣٥) د. جاد طه : سياسة بريطانيا في جنوب اليمن . ص ٢٣ — ص ٢٤ .

(٣٦) Play fair R.L.: **Op. Cit** PP. 102 - 103.

(٣٧) د. عبد العزيز الشناوي : المصدر السابق . ص ٦٧٩ .

(٣٨) د. السيد مصطفى سالم : المصدر السابق . ص ٢١٤ — ص ٢١٥ .

(٣٩) نفس المصدر . ص ٢٢١ .

(٤٠) د. فاروق اباظة : الحكم العثماني في اليمن . ص ٢٤ .

(٤١) نفس المصدر ، ص ٢٥ .

(٤٢) د. أحمد عطيه المصري : تجربة اليمن الديمقراطية ، ص ٧ .

(٤٣) Castanhoso, M: **The Portuguese Expedition to Abyssinia in 1541 - 1543,** PP. XI - XII.

(٤٤) Sergeant R.B.: **The Portuguese off the South Arabian Coast,** P.P. 98-100.

(٤٥) د. عبد العزيز : المصدر السابق ، ص ٦٨١ .

(٤٦) نفس المصدر ، ص ٦٨٢ .

(٤٧) د. السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٤١٧ .

مصادر البحث

أولا : المراجع العربية :

١ ـــ د. أحمد عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة القاهرة ١٩٥٨ .

٢ ـــ احمد فضل العبدلى : هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن بيروت ١٩٨٠ .

٣ ـــ د. أحمد عطية المصري : تجربة اليمن الديمقراطية ـــ القاهرة ١٩٧٤ .

٤ ـــ د. السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الاول اليمن ـــ القاهرة ١٩٦٩ .

٥ ـــ د. بونداريفسكي : الخليج العربي بين الامبرياليين والطامعين في الزعامة موسكو ١٩٨١ .

٦ ـــ د. جاد طه : سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ـــ القاهرة ١٩٦٩ .

٧ ـــ د. جمال زكريا قاسم : أثر الاستعمار الاوربى في تفكيك الروابط (مستخرج من بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية . الدوحة ـــ قطر ١٩٧٦) .

٨ ـــ د. حسن أحمد ابراهيم : المطامع الاوربية في الخليج ـــ مستخرج من بحوث مؤتمر ودراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ـــ الدوحة ـــ قطر ١٩٧٦ .

٩ ـــ د. طارق نافع الحمداني : عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر (مستخرج من مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٤٢ ـــ الكويت ابريل ١٩٨٥

١٠ ـــ د. عبد العزيز الشناوي : المراحل الاولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية مستخرج من بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية الدوحة ـــ قطر ١٩٧٦ .

١١ ـــ د. فاروق أباظة : الحكم العثماني في اليمن ـــ القاهرة ١٩٧٥ .

١٢ ـــ د. فاروق أباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ـــ القاهرة ١٩٧٦ .

١٣ ـــ قطب الدين محمد بن أحمد النهروالى : البرق اليماني في الفتح العثماني ـــ الرياض ١٩٦٧

١٤ ــ د. زنير : صفحات من التضامن العربي ــ مستخرج من بحوث مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية الدوحة ــ قطر ١٩٧٦ ،

١٥ ــ محمد عبد القادر بامطرف : الشهداء السبعة ــ تلخيص واعداد احمد عوض باوزير ــ حضرموت ،

١٦ ــ د. محمد محمود الصياد : أثر العرب والاسلام في النهضة الاوربية ــ القاهرة ١٩٧٠ .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

(1) Castanhose M: **The Portuguese Expedition to Abyssinia in 1541 - 1541 - 1543.** Translated and Edited by R.S. Whiteway, London 1902.

(2) Coupland, Sir Reginold: **East Africa and its Invaders,** Oxford 1938.

(3) Kammerer, Albert: **La Mer Rouge Tome II,** Le Caire 1929 - 1935.

(4) Playfair R.L.: **A History of Arabia Felix of Yemen,** Bombay 1859.

(5) Sergeant R.E.: **The Portuguese off the South Arabian Coast.** Oxford 1963.

(6) Stripling G.W.F.: **The Ottoman Turks and the Arabs. Urpana,** U.S.A. 1942.

مجلـــــة
البحوث والدراسات العربية

المنظمة العربية للتربية
والثقافة والعلوم

تصدر سنويا عن معهد البحوث والدراسات
العربية

صدر العدد الأول من المجلة في مارس (آذار) ١٩٦٩ .

- هيئة تحرير المجلة يسرها أن تدعو الباحثين والأساتذة من أعضاء هيئات التدريس بالجامعات العربية وغيرهم لنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية في المجلة وخاصة في المجالات المتعلقة ببحث ودراسة المشكلات العربية المعاصرة من جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية والقانونية كما تعني المجلة أيضا بابراز الملامح الرئيسية للأدب العربي المعاصر وبخاصة ما يعكس منها الروابط الفكرية بين شتى أقطار الوطن العربي إلى جانب اهتمامها الخاص بالدراسات الفلسطينية .
- ترجو هيئة التحرير من السادة الأساتذة الذين يرغبون في نشر أبحاثهم باللغة العربية أن يرفق كل منهم ببحثه ملخصا بلغة أوروبية حديثة فيما لا يزيد عن ألف كلمة ، كما يرجى أيضا ممن يرغب في نشر بحثه بلغة أوروبية حديثة أن يقدم ملخصا باللغة العربية بما لا يزيد أيضا عن ألف كلمة ، ويراعى في الحالين أن يتراوح المقال أو البحث بين ستة آلاف وثمانية آلاف كلمة.
- ترسل كافة المكاتبات والأبحاث المتعلقة بالمجلة على العنوان التالي :

الدكتور حمزه محمد الباقر أمين معهد البحوث والدراسات العربية
ص.ب : ٢٢٩ القاهـــــرة

- تقدم إدارة المجلة لكل السادة المشتركين في تحريرها ببحوثهم على سبيل الاهداء العدد الذي نشر به البحث بالاضافة إلى عشرين فصلة .
- كافة الأبحاث والدراسات المنشورة بهذه المجلة تعبر عن آراء كتابها ولا تحمل بالضرورة وجهة نظر المعهد أو اية جهة أخرى يرتبط بها صاحب البحث .